

رمزية الاحتفال بالمولد النبوي الشريف بمدينة القنادسة

-قراءة في مضمون الاحتفالية-

The Symbolisme Of The celebration of Prophet's Birthday in the City of Kenadsa –Reading the content of celebration

أ.د. برشان محمد¹

جامعة طاهري محمد بشار، mohammed.berchane@univ-bechar.dz

د.مقصودة محمد

جامعة طاهري محمد بشار، mohammed.maksouda@univ-bechar.dz

Doi: 10.53283/2157-006-001-003

تاريخ النشر: 2024/06/30

تاريخ القبول: 2024/01/09

تاريخ الاستلام: 2024/12/26

ملخص: لا يمكن دراسة موضوع الاحتفال بالمولد النبوي كظاهرة اجتماعية ودينية دون معرفة خصوصيات المجتمع المعني بالدراسة، وتحديد أبنيته وتقسيماته الاجتماعية لأن معرفة طبيعة المجتمع يُسهّل على الباحث إدراك عقلية وثقافة أفرادها، باعتبار أن لكل طبقة اجتماعية خصوصيتها الاجتماعية والثقافية. انطلاقاً من ذلك أردنا إسقاط هذه الصورة على مدينة القنادسة التي تُشكّل نموذجاً للتنوع الإثني والثقافي في منطقة بشار، حيث تعكس في مضمونها عادات وتقاليد هي في الأصل نتائج التجربة الصوفية منذ تأسيس الزاوية بالمدينة. ومن ثمّ يحاول شيوخ الزاوية من خلال هذه الاحتفالية إثبات الهيمنة الروحية والمادية لها، ولعشيرتها في القنادسة على حساب باقي العشائر الأخرى.

كلمات مفتاحية: القنادسة، المولد النبوي، التصوّف، محمد بن بوزيان، الزاوية.

Abstract: It is not possible to study the subject of celebrating the birth of the Prophet as a social and religious phenomenon without knowing the specificities of the society concerned, and defining its structure and social divisions because knowledge of the nature of society facilitates the researcher to understand the mentality and culture of its members.

Based on this, we wanted to drop this image on the city of Kenadsa, which is a model of ethnic and cultural diversity in the region of Béchar, reflecting in its content customs and traditions that are originally the product of the Sufism experience since the establishment of Zayaniyah in the City. Through this celebration, the elders of the corner attempt to prove the spiritual and material dominance of them and their tribe in the beavers at the expense of the rest of the other clans.

Keywords: Kenadsa, the birth of the Prophet, Sufism, Mohamed Ben-Bouzyen, School, Zaouia.

¹ - أ.د. برشان محمد، جامعة طاهري محمد بشار، mohammed.berchane@univ-bechar.dz

1. مقدمة:

يُمثل التراث الحضاريّ إرثا ثقافيا وعقيدة وفكرا للمجتمعات البشريّة، ويعكس عقليتها وشخصيتها المعنوية، بل قد يميّز مجتمعا ما عن باقي المجتمعات الأخرى. وتُعدّ المناسباتُ الدينيّة المجالَ الملائمَ لإحياء هذا التراثِ وصيانته، وبثّ مفاهيم التّواصلِ بين الأجيال من جهة، وإذكاء الرّوح الدينيّة بين الأفراد في زمن طغت فيه المادّة، وتراجعت القيمُ الرّوحيّة السّامية. من تلك المناسبات الاحتفال بالمولد النبويّ الشريف، حيث تُحيي مدينة القنادة كغيرها من المدن الجزائريّة هذه المناسبة بتقاليد وعاداتٍ تتوارث بين الأجيال، وتباين في مضمونها من منطقة لأخرى.

وقد وقفنا في هذا المقال على مظاهر تلك الاحتفاليّة في مدينة القنادة وما تحملهُ من دلالات اجتماعيّة ودينيّة، ومحاولة استعراض تفاصيلها بالمعايشة الميدانية التي تساعدنا على جمع بعض المعلومات، وبالتالي تحليل وتأويل ما لمسناه من تقاليد وعادات في هذه الاحتفاليّة.

2 - أهمية موقع القنادة

تقع القنادة في الجنوب الغربيّ الجزائريّ على الحدود الجزائريّة المغربيّة، وتبعد بحوالي 20 كلم عن مقرّ ولاية بشار. إنّ الموقع الجغرافيّ الممتاز الذي حظيت به واحّة القنادة جعل منها منطقة عبورٍ، وأهلها بأن تُشكّل وعبر المراحل التّاريخيّة جسرا تجاريا ومحورَ ربطٍ اقتصاديّ حيويّ بين الشمال والجنوب من جهة، وبين الشرق والغرب من جهة أخرى، تعبّر من خلاله القوافل التجاريّة والحجّيّة نظرا لطول المسافة، صعوبة المسالك، وخطورتها بالصّحراء.

ولم يقتصر دور القنادة على تنشيط حركة القوافل التجاريّة، فحسب بل كانت أيضا معبرا لركب الحجّ القادم من تافيلالت، وغيرها من واحات الجنوب المغربيّ. من ذلك ما أشار إليه محمد بن عبد السلام

النَّاصِرِيّ الدَّرْعِيّ فِي رِحْلَتِهِ الْحَجِّيَّة لِسَنَةِ 1784 فِي تَحْدِيدِ مَوْعِ الْقَنَادَسَةِ، وَأَصْلَ تَسْمِيَّتِهَا فِي قَوْلِهِ: "...فوصلنا القنادة ضحى يوم الخميس الأوّل من رجب، وتُعرف في القديم بالعُوَيْنَةُ، ولعلّ تسميتها بالقنادة محدثة، تسمية لها بمنزلها، بعد أن تلقّاها سكانها من المرابطين بني الشّيخ أحمد ابن أبي زيان... والبلدة منقطعة في صحراء من الأرض، وبها عيون قليلة الماء..." (أبو عبد الله القندوسي، 2008، ص59)¹. وزادت أهمية المدينة بعد تأسيس الزاوية الزيانية التي عملت بما أُوتيت من سلطة معنوية خارقة على تأمين تلك المسالك التي كانت تعجّ بقطع الطُرق واللُصوص. حققت الزاوية الزيانية بعد تأسيسها في القنادة استقرار الأوضاع الأمنية بعد سلسلة طويلة من الصّراعات القبليّة الحادّة، وانتعشت التجارة معها خاصّة تجارة القوافل بعدما كانت المنطقة مضطربة وغير مستقرة، فأضحت مهمّة قيادة القوافل وتأمين مسيرتها من المميّزات التي انفردت بها الزاوية الزيانية عن باقي الزوايا المنتشرة بالمنطقة.

فلم يكن بمقدور أيّ تاجرٍ على المغامرة بقافلته نحو الصّحراء من دون التّأكد من توفر حماية الزاوية الزيانية لها من قبيل أفراد القبائل المنضوية تحت لوائها خصوصا قبيلة ذوي المنيع. فكانت الزاوية الزيانية كما يقول صاحب منهل الطّمان "رحمة من الله منى بها على سكان المنطقة وما جاورها، فأغناهم الله بعد فقر وآمنهم بعد خوف". (التازي، د.ت، ص ص 141-138-139، P498-1897، Depont, Xavier).²

وبفضل اكتشاف مناجم الفحم التي كانت تزخر بها المنطقة زادت الأهمية الاقتصادية، الاجتماعية، والسياسية للقنادة وارتفع شأنها ليس على المستوى المحليّ فحسب بل على المستويين الوطنيّ والعالميّ، خاصّة وأنّ الحوض المكتشف من الفحم يُعدّ الوحيد بالجزائر كلّها. بدأت عملية الاستغلال الفعليّ لتلك المناجم في ماي 1917 تحت إدارة شركة السّكك الحديدية (C.F.A) والتي أصبح لها حقّ الملكية والاستغلال لاحقا بمقتضى مرسوم 1922/12/11. وبمقتضى المرسوم رقم 1835/47 المؤرخ في 1947/09/17 تمّ تنصيب شركة مناجم الجنوب الوهرانيّ (H.S.O) ونقلت جميع الممتلكات والحقوق التي كانت تحت إدارة مؤسّسة (Région des charbonnages de Colomb Bechar) إلى شركة مناجم الجنوب الوهرانيّ (H.S.O) (Guy, 1963, P 308).³

تعددت الآراء وتضاربت المواقف بشأن الاحتفال بالمولد النبوي الشريف بين مُنددٍ ومُنكرٍ لهذه الظاهرة، وبين مؤيّدٍ ومدافعٍ عنها. ومن ثمّ نجد أنفسنا أمام موقفين متناقضين: الأوّل يراها بدعةً مُنكرةً، وأمرًا مستحدثًا في الدين استنادًا لقوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "من أحدث في أمرنا ما ليس منه فهو ردٌّ". وبحجة أنّه لم يثبت عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنّه احتفل بيوم مولده، ولا عن الصحابة، ولا عن التابعين. ولو كان في مثل هذا الاحتفال خيرٌ للأمة لسبقنا السلف إلى فعله.

ويرى الاتجاه الثاني في الظاهرة تعظيمًا لمقام وقدر الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وإظهار الفرح بمولده لعلّوا مكانته في قلوب المسلمين، ويُدرجها في دائرة "البدعة الحسنة" استنادًا إلى قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "من سنَّ في الإسلام سنةً حسنةً، فعمل بها بعده كُتِبَ له أجر من عمل بها، ولا ينقص من أجورهم شيءٌ، ومن سنَّ في الإسلام سنةً سيئةً، فعمل بها بعده كُتِبَ عليه مثل وزرٍ من عمل بها، ولا ينقص من أوزارهم شيءٌ". وبالتالي فإنّ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب. ومن ثمّ فإنّ تحليل هذه الظاهرة ليس بالأمر السهل لأنّ ما كُتِبَ عنها هو محصّلةٌ ونتائج لتلك المواقف المتضاربة.⁴

كشف هذا الجدل المتكرّر والمتطاوّل حول مشروعية الاحتفال بمولد الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والذي كثيرا ما يُطرح لا من زاوية الاجتهاد وابتغاء الحقيقة، وإتّما يُطرح لذاته وتُتجاوز فيه أدب الاختلاف، عن مواطن التنافر الفكريّ والمنهجيّ بين مدرستين أو منظومتين: مدرسة نصية ظاهرية تستبعد في الغالب تأويل النصوص مثلتها السلفية، ومدرسة صوفية تجمع بين الظاهر والتأويل لبلوغ المعاني العميقة للنصوص.

4- مظاهر الاحتفالية

تبدأ مراسيم الاحتفال بالمولد النبويّ في منطقة القنادة وغيرها من المدن في الجنوب الغربيّ الجزائريّ أسبوعًا قبل التاريخ المخلّد لميلاد الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

(Passage, Brabançon, 1956, P429)⁵، إلا أنّ الاحتفالات الرّسميّة تنطلق فعليا في قصر القنادة مقرّ الرّأويّة الرّبانيّة بعد منتصف النّهار من يوم الحادي عشر من ربيع الأوّل، أي بعد صلاة العصر، حيث يمتلئ المسجدان الموجودان بالقصر عن آخرهما بالمريدين لتأدية الصّلاة وقراءة القرآن، وإنشاد القصائد الدّينيّة حيث تُقرأ قصيدتا البردة والهمزية للبوصيريّ وهو تلميذ ابن عطاء الله السكندريّ الشّاذليّ الطّريقة في التّصوّف. وهي تُمثّل بصمّة واضحة لتأكيد حضور التّصوّف وهيمنته على الاحتفال. مسجد سيد الحاج، وهو الأقدم في المدينة، ويقع في أقصى الجنوب الغربيّ للقصر ومسجد سيدي محمد بن بوزيان. كما تشهد " الدويريّة " - تصغير لكلمة الدّار - والتي تُمثّل الإقامة الرّمزيّة للرّأويّة نشاطاً ماثلاً حيث تعمل النّساء على تحضير الطّعام الذي يُقدّم للتّصوّف في جوّ مليء بالتّسبيح والذّكر، ويستمر هذا المشهد الرّوحيّ الذي يشارك فيه الرّجال والنّساء على السّواء إلى غاية صلاة العشاء. وبعدها تبدأ مرحلة أخرى تتمثّل في توجّه المريدين والمحبّين من المسجدين إلى " الدويريّة " وهي نقطة التّماسّ حيث تُقرأ " السّلكة " أي القراءة الجماعيّة للقرآن قراءة تامّة وكاملة⁶.

عندما يختم القرآن تبدأ القراءة الجماعيّة للهمزية في مدح وتعظيم الرّسول صلّى الله عليه وسلّم خير الورى، خير الخلق كلّهم، وفي منتصف الليل يقوم " الطّالب " بقراءة قصيدة " المولوديّة " والتي تُعرف أيضا بالبرزنجيّة نسبةً إلى ناظميها البرزنجي، وهي بيان مُفصّل لسيرة الرّسول صلّى الله عليه وسلّم يستغرق ذلك مدّة ساعة كاملة.

يتخلّل هذه القراءة سكونٌ وحشوعٌ روحيان، وفي اللّحظة التي يذكر فيه القارئ مولد الرّسول صلّى الله عليه وسلّم تنطلق الزغاريد احتراماً لهذه الذكرى المباركة، وفي اللّحظة التي ينتهي القارئ من قراءة القصيدة تُطلق الأهازيج من مجموعة صوتيّة بطريقة فيها سحرٌ وروعة، ولمسةٌ روحيةٌ ثمّ تُختتم بالصّلاة على الرّسول " صلّى الله عليه وسلّم عندها يُقدّم الكسكس للحضور على مختلف أعمارهم وطبقاتهم (Moussaoui, 2002, P48)⁷.

وفي اليوم الثّاني أي الثّاني عشر من ربيع الأوّل المخلد لذكرى ميلاد الرّسول صلّى الله عليه وسلّم تبدأ مراسيم الفصل الثّاني من الاحتفال، انطلاقاً من مسجد سيدي الحاج حيث يتوزّع الجميع على مكّبين رئيسيين: الأوّل يمثّله ما يُعرف بـ " التّحاة " أي من هم في الطّبقة الدّنيا من المجتمع، ويمرّ على أزقة

القصر، حيث يقطع هذا الموكب حوالي 500 م من مساره الذي يتوقف عند أماكن لها رمزيّتها وأهمّيّتها، إلى أن يلتقي مع الموكب الثاني الذي يُمثله ما يُعرف " ب الفواقة" أي من هم من عليّة المجتمع الذين يحتفلون مرتبةً عليا في الترتيب الاجتماعيّ.

بعد الانتهاء الرّمزيّ للاحتفال يتوجّه المرابطون أحفاد سيدي محمد بن بوزيان إلى الخلوة، بعدها يمشون على مدرسة الزاوية ثم يتوقف مسارهم بالدويريّة، وهو المكان الذي يقتصر دخوله إلا على هؤلاء. أمّا أصحاب الطبقة الدنيا المعروفون محلياً بـ - التّحاتة - فبعد زيارتهم للخلوة والمدرسة يعودون إلى نقطة الانطلاق وهي مسجد سيدي الحاج (Moussaoui , Abderrahmane, 2002,P49)⁸.

كما تقوم طبقة الحراطين المنتميه إلى طريقة سيدي بلال بالاحتفال على طريقته الخاصّة وذلك بتمجيد الأولياء، على وقع الطبول أو ما يطلق عليه محلياً "القرقابو". يُقدّم هؤلاء رقصاتهم المميّزة وأغانيتهم الخاصّة المستمدّة من الوقع السوداني، ممّا يجعلهم يُشكّلون نظاماً خاصّاً، ومُغايراً لطريقة احتفال العيساوة أي أتباع الطّريقة العيساوية(Moussaoui , Abderrahmane, 2002,P49)⁹.

5- مضمون الاحتفالية

يمثل قصر القنادة النّمودج الواضح لتجمّع الأشراف أين توجد عائلات تُؤكّد أغلب المصادر بانتمائها الشّريفيّ منها عائلة سيدي علي بوشنافة، وعائلة سيدي محمد بن بوزيان(العشماوي أحمد، 1961، ص ص 298-297- علي حشلاف، 1929، ص70)¹⁰. ولأنّ القنادة التي يمتلكها الشّريف بالنسب والتي تُضفي عليه هالةً من التّبجيل والاحترام، وتُفيض على شخصه لتشمل من حوله من النّاس والأرض كثيراً ما تتحوّل إلى دواء وعلاج. فقد نجح أهل الزّوايا والتّصوّف في نشر ظاهرة تقديس الأولياء والصّالحين منهم وترسيخ الاعتقاد في بركتهم بعد أن انبهر النّاس بكراماتهم، وخرقهم لِعادة، فأصبح الجميع

يعتقد بالحضور الروحي الدائم للولي الميت، وبقدرته على شفاء الأقسام والتوسط والشفاعة بينهم وبين الله
(Depont, Xavier.,1897,P498) .¹¹

لذلك ظلت ظاهرة التبرك بأولياء الله الصالحين وزيارة شيوخ الزاوية تُشكّلان الاعتقاد الراسخ لدى
عامّة الناس، والوسيلة المثلى للحصول على الشفاء من كل الأقسام والعافية من المصائب والبلاء، خاصّة في
مثل هذه المناسبات الدينيّة، حيث تتوافد جموع المتبركين والزوّار على ضريحي سيدي الحاج وسيدي محمد
بن بوزيان. وفي مقابل ذلك يدفع الزائر زيارةً عينيّةً أي جزءاً من ماله نظير تلك الوسيلة، وهو ما يزيد ويرفع
مداخل الزاوية الزبانيّة.

وترتبط ظاهرة زيارة الأضرحة بأشكال تتوارث بين الأجيال، تتمثّل في تقبيل أركان الضريح والطواف
حول قبر الولي الصالح بقدمين حافيتين، والتّمسّح بالرداء الذي يلقّاه، ثمّ تقديم بعض الهدايا والقربان
تفاوت قيمتها باختلاف طبيعة السّؤال والطلب الموجه إلى صاحب الضريح، فقد يحمل الزائر معه بعضاً
من التمر والطعام والشّموع، وقد يتعدّى الأمر ذلك ويصل إلى حدّ تقديم قربان شاة تُذبح تبرّكا
بالزيارة(Passage,Brabançon, 1956,P436).¹²

عن طريق البحث الميدانيّ تمكّنا من جمع بعض المعلومات التي تساعدنا على تحليل وتأويل ما لمسناه
من طقوس وعادات في هذه الاحتفالية. وهكذا تبين لنا مدى تجذّر هذه الظاهرة في حياة المجتمع بمدينة
القنادة، والتي تعكس في مضمونها عادات وتقاليد هي في الأصل نتاج التجربة الصّوفيّة منذ تأسيس
الزبانيّة بالمدينة، وهو ما يدعو للتساؤل: لماذا حُدّد مسائر موكب الاحتفال مروراً بتلك الرّموز الدينيّة،
والمقصود هنا مسجد سيدي الحاج وسيدي محمد بن بوزيان مروراً على الخلوّة والمدرسة وانتهاء بالدويريّة
؟ ثمّ لماذا يُقتصر دخول الدويرية إلّا على الأشراف بينما يتمّ إبعاد الطبقات الأخرى التي تُحرّم من زيارة
المكان؟

للإجابة على هذه الأسئلة نقول إنّ الاحتفال بهذه المناسبة الكريمة يأخذ في ظاهره انطباعاً سطحيّاً
على أنّه عبارة عن أهارج، وحركات يقوم بها المحتفلون من جميع الطبقات الاجتماعيّة بهذه المناسبة الكريمة،
إلّا أنّ حقيقة الباطن تكشف عن قُدسيّة المناسبة، والمكان بالنسبة للمرابطين دون غيرهم. فكلّ رمز أو

حركة إلا ويُجسّد هذا البعد القداسي لهؤلاء. فانطلاق موكب الاحتفال من مسجد سيدي الحاج العتيق حيث يُوجد ضريح الولي الصالح تعبيرٌ عن المولد البيولوجي لهذه العائلة.

فالمسجد العتيق ليس بالضرورة أن يكون نقطة الانطلاق للموكب، لكنّ هذا المكان كما أشرنا سابقاً يضم قبر المؤسس الحقيقي حيث يحمل المسجد اسمه، كما أنّ الموكب لا ينطلق من مسجد سيدي بن بوزيان التبع الرئيسي للطريقة الزاوية (أبو عبد الله القندوسي، 2008، ص6- التازي، د.ت، ص118-119، P408، 1884

¹³ (Louis Rin).

لأنّه لولا سيدي الحاج لما وُجد سيدي محمد بن بوزيان، فهو بمثابة الحفيد، وبالتالي الطريقة لم تكن لتوجد لولا المؤسس الأول للقصر، ومن ثمّ فإنّ هذا المسجد هو الذي جمع الطريقة على هدف واحد

¹⁴ (Moussaoui , Abderrahmane, 2002,P50).

تجدد الإشارة هنا إلى أنّ قصر القنادة يضمّ مسجدين عتيقين ارتبط بناؤهما برجلين صالحين ساهما في إرساء دعائم المكانة الدينيّة والحضاريّة التي تبوّأها المدينة في العصر الحديث: المسجد الأول والمعروف بمسجد سيدي الحاج نسبة إلى الولي الصالح سيدي الحاج بن أحمد المؤسس الحقيقي لقصبة القنادة باعتباره أوّل من نزلها من المرابطين سنة 1522م، ومن ثمّ فالأرجح أنّه بُني خلال القرن السادس عشر الميلاديّ.

وعلى الرّغم من التحوّلات الدينيّة والثّقافيّة التي عرفها القصر بعد تأسيس الزاوية الزاوية سنة 1687 إلاّ أنّ الشّيخ سيدي محمد بن بوزيان اتخذهُ مسجداً جامعاً لسكّان القصر، وقام بترميمه احتراماً وتبرُّكاً لصاحبه (اليعقوبي، د.ت، ص 394) ¹⁵. حيث يوجد بداخل المسجد ضريح سيدي الحاج بن أحمد. وهو يقع في أقصى الجنوب الغربيّ للقصر.

أمّا المسجد الثّاني فيقع بداخل مقرّ الزاوية الزاوية والمسّمى باسم مؤسسها سيدي محمد بن بوزيان المتوفّي سنة 1732م، حيث تشير المصادر التي أرّخت للزاوية الزاوية إلى أنّ المسجد بُني في عهد مشيخة سيدي بومدين بن محمّد الأعرج المتوفّي سنة 1790 وهو الذي شيّد صومعته. تجدر الإشارة أيضا إلى أنّ

المسجد يضم هو الآخر ضريح سيدي محمد بن بوزيان وأفرادا من عائلته (A.N.O.M, sérier 16H66,1953).¹⁶

كما أنّ خروج المرابطين الزيانيين في مسار يبدأ من مسجد سيدي محمد بن بوزيان باتجاه الخلوة ثمّ دار الشيخ وانتهاء بالدويرية، يحمل دلالة معنوية وأخرى اجتماعية، إذ من خلال هذا المسار يعلنون سيادتهم ومكانتهم الاجتماعية، ويتجلى ذلك في رمزية الدويرية التي لا يدخلها إلا من كان ينتمي إلى عشيرتهم بجهة تجنب الاختلاط ودرء المفسدة. لكنّ شبهة الاختلاط تبقى سارية حتى ولو كانت بين أفراد جمهورية أبناء العم أو العائلة الواحدة وفقا للمنظور الشرعي. ومن ثمّ فهذه الحجة مردودة، ولا يمكن الأخذ بها خاصة في ظلّ تفكك العائلة الكبيرة من جهة، واختلاط الأجناس والطبقات ضمن إطار الزواج والمصاهرة من جهة أخرى.

من خلال هذا المسار المتشعب المسالك المحدد من قبل المرابطين الزيانيين لإحياء هذه المناسبة الدينية فإنهم يؤكدون حيازتهم الدائمة على علوم الظاهر وعلوم الباطن، بأخذهم علوم الحقيقة من مؤسس الزاوية - من الخلوة -، وحرصهم على علوم الشريعة من المدرسة "دار الشيخ"، ومن ثمّ يعلنون إرثهم من هذه العلوم (Moussaoui, Abderrahmane, 2002,P52).¹⁷

ومّا يزيد في رمزية ودلالة المسار أنّ العامة من الناس - التحاتة - أي من هم في أسفل الترتيب الاجتماعي يقفون راجعين إلى نقطة الانطلاق المتمثلة في مسجد سيدي الحاج ولا يدخلون "الدويرية"، وهو ما يوحي بأنهم لا يملكون أيّ سلطة على الرغم من أنهم يتفاسمون مع المرابطين العاصمة الرمز القنادة لهذا الإرث.

تحاول الزاوية الزيانية من خلال هذه الاحتفالية إثبات أنّ قوة المرابطين المتمثلة في شيوخ الزاوية، وهيكلها التنظيمي كانت الفيصل في تأكيد الهيمنة الروحية والمادية لها في القنادة على حساب باقي العشائر الأخرى. وهذه أطروحة وهمية لا تتماشى والتحوّلات التي يعرفها المجتمع الجزائري، لأنّه ومع الاعتراف التام بفضل ومكانة الزاوية تاريخيا، واجتماعيا، وحتى سياسيا فإنّ ريادتها وقيادتها للمجتمع كانت محدودة في المكان، وفي الدور الذي لعبته على حسب الظروف التي مرّت بها، وإذا استثنينا المراحل الأولى لتأسيس الزاوية الزيانية إلى غاية فترة الاحتلال فإنّ المرابطين الزيانيين انتهوا بعد أن استهلكهم الصراع البيئي

على القيادة والنُفوذ على غرار الزاوية الشيخية وكثير من الزاويا الأخرى إلى ما يمكن تسميته تديجياً- **Domestication** من قبل الاستعمار ولم يُنال هذا الأخير بعد ذلك في الشكل - **Forme** الفولكلوري أظهر خصائصه هي المظاهر الاحتفالية بالمولد النبوي الشريف... حيث غاب الدور القيادي في التنوير والتربية والتعليم. وهنا نستثني ما يقوم به الأستاذ طاهيري أمبارك من جهود حثيثة في محاولة إحياء هذا الدور من خلال نشاطاته العلمية والثقافية في الخزانة.

نحن إذ نطرح هذه القراءة ونفتحها للنقد والنقاش فإننا لا نريد من وراء ذلك القدرح في المكانة الدينية والاجتماعية التي حظي بها الأشراف في القنادة، أو في المجتمعات الإسلامية عموماً لأنّ قداسة النسب النبوي تكفل الشرع بكفالاته حين جعل من العترة الشريفة القطب الذي تدور عليه رحى الإسلام، وأضحت هذه الكفالة الدينية لآل البيت المطهر أهل بصص الكتاب ثقافة اجتماعية وسياسية متجددة، ومحفوظة بل متوارثة بين الأجيال المسلمة إلى يوم الدين. ونلمس صورة من هذه الرعاية في قوله تعالى: " قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا، إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى " وقوله تعالى أيضاً: " إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا " (الآية 23 سورة الشورى، الآية 33 سورة الأحزاب)¹⁸

صحيح أنّ المكانة التي يتبوأها الأشراف والمرابطون في المجتمع لا ترتبط بالسدلطة السياسية ولا الوجاهة ولا المال، وليس من المعقول ولا الشرع يقبل أن تتحوّل تلك الحظوة لجناب آل البيت إلى نوع من التمييز "Discrimination" الاجتماعي، والتفاضل العرقي بين الناس، ومن ثمّ تزداد حدّة التفاخر بالنسب بين كلّ الطبقات. إنّنا نظلم الشرف والانتماء إلى آل البيت عندما يُحتكر في ممارسة التمييز، وننسب إليه مثل هذه السلوكيات المطلقة في تكريس مبدأ التفاضل الذي يُميّز بين الناس باسم الشرف. كما أنّ التجربة التاريخية أثبتت أنّ المبالغة في احتكار الشرف كثيراً ما أدّى إلى انتقال الفكرة من إطارها الديني والاجتماعي

إلى الإطار السياسيّ، فتحوّل بذلك إلى مرجعيّة إيديولوجيّة، وبالتالي يتحوّل الادّعاء بالانتساب إلى آل البيت إلى دعوة سياسيّة يستثمر فيها أعداء الوحدة الوطنيّة.

وديننا الإسلاميّ يدعو إلى المساواة بين الناس أجمعين، كما أنّه يدعو في نفس الوقت إلى إسقاط كلّ معاني التفاضل القائمة على العرق واللّون والقبيلة، لكي لا يبقى سوى الإيمان والعمل الصّالح مقياساً للتفاضل بين المسلمين، ويتجلّى ذلك في قوله تعالى: " يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَاكُمْ" (الآية 33 سورة الحجرات)¹⁹. وهي دعوة إلى تدكّر وحدّة الأصل، وما تقتضيه من أخوة وتآلفٍ.

وبالرغم من الجدل القائم بين الفقهاء والمتصوّفة حول مشروعيّة الاحتفال بالمولد النبويّ الشريف، ومحاولات البعض محاصرة تلك التّقالييد الصّوفية وإبطالها، إلّا أنّ الظّاهرة مستمرّة وفق تلك التّقالييد التي أضحت أكثر تجدراً في القاعدة الشعبيّة، خاصّة بعد أن تبنت كثيرٌ من الرّوايا الصّوفيّة خطاب الشّرف، بالانتساب إلى آل البيت. ومن ثمّ نجح التّصوّف والرّوايا في ترسيخ الاحتفال بالمولد النبويّ بعد أن منحوه طابعا من القداسة، وأحاطوه بهالة من التّعظيم والتّبجيل بدعوى أنّه يغرس حبّ النّبيّ في قلوب المسلمين.

6- خاتمة:

وفي الأخير نقول إنّه بمناسبة الاحتفال بالمولد النبويّ الشريف يُعلن المرابطون والأشراف في القنادة انتماءهم إلى الأمة الإسلاميّة التي تشترك في الاحتفال بهذه المناسبة، وفي نفس الوقت تُعلن هذه الجماعة عليّتها الاجتماعيّة، ومزيّتها الرّوحيّة على المجتمع القندوسيّ من خلال الإعلان بانتمائها وانحدارها من سلالة الرّسول صلّى الله عليه وسلّم. وبالتالي فإنّ الاحتفال بالمولد النبويّ بمدينة القنادة ما هو في حقيقة الأمر إلّا مناسبة لإضفاء الشّرعيّة لهذا النّسب، والاحتفال بتأسيس الرّواية الرّيانيّة. حتّى وإن بدت وظيفة هذه الاحتفاليّة في التّقريب بين الناس، وتوطيد علاقات متينة فيما بينهم.

7- قائمة الإحالات:

اسم المؤلف: أ.د. برشان محمد/مقصودة محمد
عنوان المقال: رمزيّة الاحتفال بالمولد النبويّ الشريف بمدينة القنادة
-قراءة في مضمون الاحتفالية-

- ¹- أبو عبد الله محمد بن القاسم القندوسي، شراب أهل الصفا في الصلاة على النبي المصطفى، تحقيق عبد الله حمادي وأحمد محمود الجكني، دار الهدى، الجزائر، 2008، ص. 59.
- ²-Depont Octave, Xavier Cappolani, Les Confréries Religieuses Musulmanes, Alger, 1897 P.498. Voir aussi:-
- التّازي عبد الرحمان، منهل الظّمان ومزيل الهموم والكرب والأحزان في كرامات شيخنا العارف بالله سيدنا الحاج محمد ابن أبي زيان مخطوط غير مصنف موجود بالخزانة القندوسية، بشار، ص ص 138،141.
- ³ - Guy le Rumeur, Le Sahara avant le Pétrole, Connaissance de l'Afrique, société Continentale, Edition Moderne Illustrées, Paris, 1963, P.308.
- ⁴ - لمزيد من المعلومات حول الموضوع ينظر: -الحافظ أحمد بن حجر العسقلاني في كتابه: الإصابة في تعريف الصحابة. - وأيضاً الحافظ السخاوي في فتاويه الحافظ السيوطي في رسالته: حسن المقصد في عمل المولد.
- ⁵ - في تاغيت وعبر كامل قصورها يتمّ بمناسبة المولد النبويّ الشريف تمجيد الأولياء، وتُزار الأضرحة التي تعدُّ إرثاً دينياً يرتبط بتاريخ المنطقة، وتشهد تلك القصور احتفالات ضخمة تحمل فيها الرّيايات الإسلاميّة المخدّدة للذكرى، وتتجه مواكب الاحتفال التي يتجمع فيها النساء والرجال على السواء إلى أضرحة سيدي علي، سيدي داود، سيدي بايزيد... ينظر:
- Passage Passager (P), Brabançon, « Taghit, Sahara Oranais, Etudes Historique, Géographique et Médicale, Archives de l'Institut Pasteur d'Alger, Tome 34.N° 03, 30 Septembre 1956, P.429.
- ⁶ - السّلْكَةُ كلمة عامية وربما تُرجمت من الأمازيغية "ايسوفاغ" وتعني إخراج، بمعنى إهداء ثواب قراءة القرآن كلّهُ للميت مع صدقة من الطعام للقارئ، ومن حضر معهم، حيث يختم القرآن كاملاً في ظرف ساعتين، بعد أن تُقسّم أجزاءه على اثني عشرة قارئاً، - وكلّ قارئ وعادة يكون من الطلّبة بضمّ الطاء، - يقرأ خمسة أحزاب، ومن تمّ يختم 60 حزبا خلال ساعتين.
- ⁷ - Moussaoui , Abderrahmane, Espace et Sacre au Sahara, Ksour et Oasis du Sud-Ouest Algérien, C.N.R.S Edition, Paris,2002,P.48.
- ⁸ - Moussaoui , Abderrahmane,P.49.

⁹ - Ibid.,

¹⁰ - العشموي أحمد المتوفي (1142هـ - 1730م)، السلسلة الوافية والياقوتة الصافية في أنساب أهل البيت المطهر أهله، المطبعة الخلدونية، تلمسان، الجزائر، 1961، ص. 297.298، ضمن كتاب ابن بكار (الهاشمي) جوامع النسب والحسب والفضائل والأدب تلمسان، مطبعة ابن خلدون، 1976، ص. 142. ينظر أيضا: ابن محمد عبد الله ابن الشارف علي حشلاف، سلسلة الأصول في شجرة أبناء الرسول، المطبعة التونسية، تونس، 1929، ص. 70.

¹¹ - Depont Octave, Xavier Cappolani, Op,Cit, P.498.

¹² - Passage, P, Op.Cit, P.436.

¹³ - تنتسب إلى مؤسسها الشيخ محمد بن عبد الرحمان بن محمد بن أبي زيان، (1650-1732) الذي اشتهر بالزهد والورع والاستقامة. فبعد رحلة علمية طويلة جاب خلالها أكبر الحواضر العلمية بالمغرب الأقصى وأرض الحجاز، طلبا للعلم والمعرفة، استقر به المقام سنة 1686 بالقنادة. حيث أسس زاويته مستمدا تعاليمها من الطريقة الشاذلية عن طريق شيخه مبارك بن عبد العزيز الغريّ خلال تواجده بسجلماسة.

فتحوّلت القنادة بهذا التأسيس إلى قطبٍ دينيٍّ واجتماعيٍّ، وملتقى يتجمّع فيه الزوّار من كلّ حدبٍ وصوبٍ تقرّبا من الشيخ الذي فتح الله عليه بالعلم الظاهر والباطن، وصار الناس يتحدثون به، لما رأوا له من الخير والأصلاح، فكبر مقامه عند القوم، وارتفع شأن الزاوية ليشمل نفوذها معظم أراضي الصحراء ومناطق عديدة من شمال الجزائر والمغرب. وحسب إحصائيات الإدارة الاستعمارية فإنّ الزاوية الزاوية كانت تحوز 15% من مجموع أتباع ومريدي الزاوية بالجزائر، 08% بالمغرب الأقصى، ينظر: - أبو عبد الله محمد بن القاسم القندوسي، نفس المصدر، ص. 6.

- التّازي علي بن عبد القادر، نفس المصدر، ص. 118.

Louis Rin, Marabout et Khouan, Librairie, Adolphe Jourdan, Alger, 1884, P408

¹⁴ - Moussaoui, Op, Cit ,P.50.

¹⁵ - يعقوبي، عبد الرحمان بن محمد، فتح المنان في سيرة الشيخ أحمد بن بوزيان، مخطوط بخزانة الزاوية القندوسية، غير مصنف، ص. 394.

¹⁶ - يضمُّ مقرّ الزاوية الزاوية إضافة إلى المسجد والمدرسة غرفة الضيافة وقاعة أخرى كبيرة الحجم بنيتا حديثا أي سنة 1951 تغطيان بمجموعهما مساحة تقدر بـ 250 م²، خصصتا لاستقبال الوفود الرسمية، كما يحتوي مقر الزاوية أيضا على ثلاثة غرف صغيرة لا تتعدى مساحتها الإجمالية 100 م²، تحيط بها باحة مزخرفة بشتى أنواع التبليط، ومتعددة الأشكال والتصاميم، وقد وضعت هذه الغرف لاستقبال وإيواء المسافرين وعابري السبيل، كما تجدر الإشارة إلى أن هذا المقر استفاد من الكهرباء الحديثة. ينظر:

-A.N.O.M, sérrier 16H66. « Consistance des Locaux de la Zaouïa », Colomb-Bechar Le 06 Juillet 1953.

¹⁷ - Moussaoui, Op, Cit ,P.52.

¹⁸ - الآية 23 من سورة الشورى. والآية 33 من سورة الأحزاب. والأدلة من الأحاديث النبوية كثيرة ولا تحصى نكتفي بذكر بعض منها كقوله صلى الله عليه وسلم: " تركت فيكم كتاب الله وعترتي: أهل بيتي، لا يفترقان حتى يردا على الحوض " رواه البخاري. وقول أبي بكر: "ارقبوا محمدا في آل بيته، ونحتم بوصية علي كرم الله وجهه " أدبوا أولادكم على ثلاث: على حب نبيكم، وحب آل بيته، وحب القرآن ".
¹⁹ - الآية 13 من سورة الحجرات.

8- قائمة المصادر والمراجع:

- 1- التازي عبد الرحمان، منهل الظمان ومزيل الهموم والكرب والأحزان في كرامات شيخنا العارف بالله سيدنا الحاج محمد ابن أبي زيان مخطوط غير مصنف موجود بالخزانة القندوسية، بشار.
- 2- القندوسي، أبو عبد الله محمد بن القاسم، شراب أهل الصفا في الصلاة على النبي المصطفى، تحقيق عبد الله حمادي وأحمد محمود الجكني، دار الهدى، الجزائر، 2008.
- 3- العشماوي أحمد المتوفي (1142هـ - 1730م)، السلسلة الوافية والياقوتة الصافية في أنساب أهل البيت المطهر أهلها، المطبعة الخلدونية، تلمسان، الجزائر، 1961. ضمن كتاب ابن بكار (الهاشمي) جوامع النسب والحسب والفضائل والأدب تلمسان، مطبعة ابن خلدون، 1976.
- 4- اليعقوبي، عبد الرحمان بن محمد، فتح المنان في سيرة الشيخ أحمد بن بوزيان، مخطوط بخزانة الزاوية القندوسية، غير مصنف.
- 5- علي حشلاف ابن محمد عبد الله ابن الشارف، سلسلة الأصول في شجرة أبناء الرسول، المطبعة التونسية، تونس، 1929.

6-A.N.O.M, sérrier 16H66. « Consistance des Locaux de la Zaouïa », Colomb- Bechar Le 06 Juillet 1953.

- 7- Depont Octave, Xavier Cappolani, Les Confréries Religieuses Musulmanes, Alger, 1897 .
- 8-Guy le Rumeur 'Le Sahara avant le Pétrole 'Connaissance de l'Afrique 'société Continentale 'Edition Moderne Illustrées 'Paris, 1963.
- 9- Passage Passager (P), Brabançon, « Taghit, Sahara Oranais, Etudes Historique, Géographique et Médicale, Archives de l'Institut Pasteur d'Alger, Tome 34.N° 03, 30 Septembre 1956.
- 10-Louis Rin, Marabout et Khouan, Librairie, Adolphe Jourdan, Alger,1884
- 11- Moussaoui , Abderrahmane, Espace et Sacre au Sahara, Ksour et Oasis du Sud- Ouest Algérien, C.N.R.S Edition, Paris.